دلالات تقديم الإسناد وتأخيره في شعر بشار بن برد وأبي العتاهية

أحمد عابد الأطرش، د. سعد الدين المصطفى، د. محمود داود
جامعة إدلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية.

الملخص:

الرتبة إحدى القرائن اللفظية التي تحدد الموقع الوظيفيّ للكلمة في الجملة، فيقال: رتبةُ الفاعل أن يتقدَّمَ على المفعول، ورتبة المفعول أن يتأخر عن الفاعل، ورتبة المبتدأ التقدُّم على الخبر، ورتبة الخبر التأخُّر عن المبتدأ؛ فإذا تقدَّمت الكلمة في الجملة بحسب الرتبة المقررة، قيل حينئذٍ: إنَّها متقدمةٌ في الرتبة، وإذا تأخَّرت قيل: متأخرة في الرتبة.

وتتميز العربية بهذه الظاهرة التي تعدُّ إحدى الظواهر الأسلوبية التي تعكس مرونةً في الاستعمال، وقدرةً على إيصال الرسالة على وجهٍ أتمَّ وأجمل، وهذا التغيير في نظامِ التركيب ليس عارضاً، بل هو أمرٌ مطَّرِدٌ مرتبطٌ بالأغراض والدلالات، فالترتيب في النحو تحكمه أصولٌ وقواعد؛ منها ما هو محفوظٌ لا يمكن مخالفته، ومنها ما هو غير محفوظ، ويمكن الخروج عنه في حدود الصواب لتحقيق أغراضٍ ودلالاتٍ إضافية، لا يبرزها الترتيب الأصلي لمكونات الكلام، ولذلك كانت الرتبة قرينةً لفظيَّةً في الكلام، وعلاقةً تراتبية بين عنصرين من عناصر السياق، يشهد موقع كلٍّ منهما على معناه من خلال التجاور .

الكلمات المفتاحية: المسند، المسند إليه، التقديم، التأخير، الدلالة، التركيب، القرينة اللفظية .

The Semantic Implications of Preposing and Postposing of Predication in the Poetry of Bashar ibn Burd and Abu al-Atahiyah

Ahmad Abed Al Atrash Dr. Saad Aldeen Al Mustafa
Dr. Mahmud Daod

Abstract:

Rank is one of the semantic clues that determine the position of a word within sentence structure. It refers to the placement of a word in the sentence, such as saying that the rank of the subject is to precede the object, while the rank of the object is to follow the subject. Similarly, the rank of the subject (in nominal sentences) is to come before the predicate, while the predicate is expected to follow the subject. If a word appears in the sentence according to its predetermined rank, it is said to be advanced in rank; if it appears later, it is considered delayed.

The Arabic language is distinguished by this phenomenon, which is one of the stylistic features that reflect flexibility in usage and enhance the ability to convey messages in a more complete and refined manner. This variation in sentence structure is not random but rather follows consistent linguistic principles tied to meanings and communicative purposes. Sentence order in Arabic grammar is governed by established rules, some of which must be strictly adhered to, while others allow for deviations within acceptable limits to achieve specific nuances or additional meanings that standard sentence structure may not highlight. Therefore, rank serves as a verbal clue in speech and establishes a hierarchical relationship between elements of context, where each element's position informs its meaning through adjacency.

Keywords:

Predicate, Subject, Precedence, Delay, Significance, Structure, Verbal Context.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

يقع التقديم والتأخير في الجملة التي هي أصغر وحدةٍ يتمُّ بها معنى الكلام، والتي لا بد أن يتوافر فيها الركنان الأساسيان اللذان هما: المسند والمسند إليه، أي: الفعل والفاعل، أو المبتدأ والخبر.

ويختلف التركيب الإسنادي بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية، إذ تبدأ الجملة الفعلية بالمسند أولاً يليه المسند إليه ثانياً، وتبدأ الجملة الاسمية بالمسند إليه أولاً ويليه المسند ثانياً، إذ يتلو الخبرُ المبتدأ، إلا أنَّ هذا الأصل لا يُلتزَمُ به دوماً؛ فقد يتقدَّمُ الخبرُ على المبتدأ، وقد يكون غيرُ الأصل لازماً أحياناً إذا تعارض هذا الأصل الموقعيُّ مع أصلٍ آخر أهمَّ وأولى أن يُتَّبع، إذ يمكن أن يعتري هذا الترتيبَ في الكلام تبديلٌ في الموقع بين ركني الإسناد، ليترك أحد الركنين مكانه مقابل عوضٍ معنويّ يُسوّغُ هذا التَّبديل الموقعيَّ الذي هو خلافُ الأصل، فما كان أصلاً فالإشارة إليه تكفيه، وما كان متصرفاً فينبغي الحديث عن دواعيه وكشفُ مراميه.

أهمية البحث :

تظهر أهميَّةُ هذا البحث من خلال النَّظرِ إلى غايته، التي تروم – كباقي الدراسات اللسانية الحديثة – استنطاقَ النَّص، وتسعى إلى الوقوف عند المنطلقات النظرية التي تؤسس لذلك، فالنَّصُّ والمادة اللغوية المدروسة مستوحيان من ديواني الشاعرين بشار بن برد وأبي العتاهية.

والجدير بالذكر أنَّ الشاعرين من حقبةٍ واحدة ، وبين الشَّاعرَينِ العديدُ من الظَّواهر الصالحة للمقارنة الأدبية واللغوية على حدٍّ سواء؛ ويعدُّ الوقوف عند هذين الشاعرين محاولةً جادَّة في تقديم إجاباتٍ مقنعة حول مسألة الاستشهاد بكلام المولَّدين أو المحدثين؛ لأنَّ كثيراً من اللغويين لم يركنوا إلى أشعارهم لأنَّهم لم يحققوا معايير الاحتجاج الزمانية

والمكانية، وعدُّوا الشاعرين – موضوعَ الدرس – من الطبقة الرابعة التي لا يجوز الاحتجاج بأشعارها.

أهداف البحث:

1- تسليط الضوء على ديوان كلٍّ من الشاعرين من جهة الإسناد المتعلق بالرتبة .

2- معالجة نتاج كلٍّ من الشاعرين من الناحية النَّحوية والبلاغية بما يعزز الصلة بالدرس النظري.

3- تسليط الضوء على بعض المسائل اللغوية التي تبرز الجانب الأسلوبي لكلا الشاعرين.

4- الوصول إلى إجاباتٍ يمكن أن تفسِّر نُظَمَ البناء وطرائقَ التَّركيبِ من خلال تحليل بنية القصيد المتعلقةِ بالرُّتبة ووصفِها ومقارنتِها .

منهج البحث :

يعتمد هذا البحث المنهجَ المقارنَ بالدرجة الأولى، إضافةً إلى المنهج الوصفي التحليلي الذي يهدف إلى الكشف عن العلاقات التجاوريَّة الخاصَّة والعامَّة في السِّياق، لإظهار القيم التركيبية والتعبيريَّة، وبيان مدى إسهام التركيب الإسنادي تحديداً في تشكيل المعنى ضمن الصِّياغة الكليَّة للجملة والنَّص، ومن المؤكَّد أنَّ أهمية هذا البحث تكمن بالدرجة الأولى في المقارنة بين الشاعرين من عدَّة نواحٍ، لتسليط الضوء على أسلوب الشاعرين من خلال عقد موازنات إسنادية تتعلق بالرتبة، وتُظهِرُ التفاوت اللغوي الفنيَّ الذي يتراوح بين البلاغة والأسلوب، ولتقديم تمايزٍ واضحٍ لا لبس فيه ما أمكنت إلى ذلك السبيلُ، وذلك من خلال تسليط الضَّوء على كيفيَّة تعاطي الشَّاعرين مع التراكيب الإسنادية من منطلق رتبتها .

التمهيد:

1- المدلول اللغوي: التقديم والتأخير مصدران على وزن (تَفْعِيلٌ) للفعلين (قدَّم) و (أخَّر)، وجاء في اللسان"مقدِّمةُ كلِّ شيءٍ أوَّلُه"[1].

وورد تعريف التقديم في (معجم المصطلحات النحوية والصرفية) بأنَّه "**خلافُ التَّأخير، وهو أصلٌ في بعض العوامل والمعمولات، ويكون طارئاً في بعضها الآخر، فمما يجب التقديم فيه وهو أصلٌ: الفعل مع الفاعل والمبتدأ مع الخبرِ، والفاعلُ مع المفعول به، وبقيَّةُ الفضْلات والمكملات**"[2].

أمَّا التأخير في الاستعمال النحوي فهو "**حالةٌ من التَّغيير تطرأ على جزءٍ من أجزاء الجملة، وتوجِبُ وضعه في موضعٍ لم يكن له في الأصل**"[3].

وقد استعمل النُّحاةُ مصطلحَ (الرُّتبة) التي جمعت بين مصطلحي التقديم والتأخير، والرتبة لغةً: "**المكانةُ والمنزلةُ، يُقالُ رَتَبَ الشيءُ أي ثبتَ فلم يتحرك، رَتَب رُتوبَ الكعبِ، أي انتصبَ انتصابَه، ورتَّبه ترتيباً: أثبَتَه**"[4].

والرُّتبةُ اصطلاحاً: "**هي الموقعُ الذِّكْرِيُّ للكلمة في جملتها**"[5]، وبتعريفٍ آخر هي: "**الموقعُ الأصليُّ الذي يجب أن تتخذه الوظيفة النحويَّةُ بالنسبة إلى الوظائف الأخرى المرتبطة بها بعلاقةٍ نحويَّةٍ تركيبية**"[6]، فهي – أي الرتبة – وصفٌ لمواقع الكلمات في التركيب.

فالتقديم في النحو استجابةٌ لإحدى القواعد النحويَّة، وحصره أمرٌ ممكن، أمَّا في البلاغة فإنَّ الأمر مختلف، إذ تقتضي القاعدة البلاغية في التقديم والتأخير أن يقدَّمَ الأصيلُ على الدَّخيل، والثابتُ على المتحوِّل، والأهمُّ على المهمّ، وذو الفائدة على غير ذي الفائدة، وهذه الأغراض كثيرةٌ لا حصر لها؛ وإن أردنا استقصاء المعاني في هذا المجال تعذَّرَ ذلك؛ لأنَّ هذه المسألة تتعلق في النهاية بالمعاني التي لا تنتهي لا بالألفاظ التي تنتهي، ويقتصرُ البحث في هذه القضية على ركني الإسناد فقط ، من حيث دلالات تقديم المسند، ودلالات تقديم المسند إليه.

المبحث الأول: تقديم المسند:

1- تقديم المسند في الجملة الاسمية: الأصل في ترتيب الجملة الاسمية أن يتقدم المبتدأ على الخبر؛ "**لأنَّ الخبر وصفٌ في المعنى للمبتدأ، فاستحقَّ التأخيرَ كالوصف**"[7]، وقد ذكر سيبويه (ت180هـ) أنَّ "**المبتدأ الأوَّلُ، والمبنيُّ ما بعده عليه، فهو مسندٌ ومسندٌ إليه**"[8].

ومن الأصول المعتبرة في هذه المسألة أنَّ المسند إليه معرفةٌ والمسندَ نكرةٌ، وقد قدَّم علماء البلاغة الكلام في التعريفِ على الكلامِ في التنكيرِ عموماً لأنَّ التنكيرَ هو الأصلُ، "**فليس للنَّفسِ تشوُّقٌ طائلٌ إلى ذكر سببه**"[9]، والأصلُ في المسند إليه التعريفُ؛ "**لأنه محكومٌ عليه، والحكمُ على المجهول غيرُ مفيدٍ، وكان الأصلُ في المسند التنكيرُ لأنَّه محكومٌ به، والحكم بالمعلومِ لا يفيدُ، فالقصدُ إذاً إثباتُ حالةٍ مجهولةٍ لذاتٍ معيَّنةٍ**"[10].

أمَّا إذا تساوى طرفا الإسناد في التعريف فإنَّه يمتنع تقديم الخبر المعرفة على المبتدأ المعرفة أمناً للَّبس، ويتعامل النُّحاة مع المتقدم في هذا التركيب على أنَّه مبتدأ أمناً للبس في التركيب الإسنادي، وفي ذلك يقول ابن يعيش (ت643هـ) عن صاحب الكتاب: "**قد يقع المبتدأ والخبر معرفتين معاً، كقولك: زيدٌ المنطلقُ، واللهُ إلهنا، ومحمدٌ نبيُّنا، ومنه قولك: أنت أنت، ولا يجوز تقديمُ الخبر هنا، بل أيُّهما قدَّمتَ فهو المبتدأ**"[11]، ويُستثنى من ذلك التركيبُ الذي يتضمن دليلاً أنَّ المتأخر هو المبتدأ وأنَّ المتقدم هو الخبر[12] .

وقد يتقدم الخبر **(المسند)** على المبتدأ **(المسند إليه)** لأغراضٍ تركيبيَّة وبلاغيَّةٍ، لتتشكَّلَ جملةٌ مخالفةٌ لأصل الاستعمال، مع مراعاة أنَّ المبتدأ لا يكون إلاَّ على صورةٍ واحدةٍ، وهي أنَّه يبقى مفرداً، بخلاف الخبر الذي يَرِدُ مفرداً وشبه جملةٍ، وجملةً اسميَّةً أو فعليَّة، والتقديمُ يكون جائزاً وواجباً.

أ- تقديم المسند جوازاً: ذكر سيبويه في كتابه أنَّ الخبر المفرد جائزُ التقديم **لأنَّه مؤخرٌ في النيَّة**، وذكر ابن جني (ت392هـ) أنَّ تقديم الخبر على المبتدأ جائزٌ، فهو من باب الاتساع في الكلام، إذ قال: "**يجوز تقديم خبر المبتدأ عليه، تقول: قائمٌ زيدٌ، وخلفك بكرٌ،**

والتقدير: زيدٌ قائمٌ وبكرٌ خلفك، فقُدِّمَ الخبران اتساعاً، وفيهما ضميرٌ ؛ لأنَّ النيةَ فيهما التأخيرُ"[13].

ب- تقديم المسند وجوباً: يتقدم الخبر (المسند) على المبتدأ (المسند إليه) وجوباً إذا وقع المبتدأ نكرةً محضةً وكان الخبرُ ظرفاً أو جارًّا ومجروراً (شبه جملةٍ) يحمل معنى الظرفية، إذ يُلتَزَمُ التقديمُ فيما وقع فيه المبتدأ نكرةً والخبرُ ظرفاً أو جارًّا ومجروراً[14].

وقد ذكر ابن هشام أنَّ الخبر يتقدَّمُ على المبتدأ وجوباً إذا التبس الخبرُ بالصفةِ؛ ذلك "**أنَّ طلب النكرة الوصفَ لتختصَّ به طلبٌ حثيثٌ**"[15]، ولذلك وجب تقديم الخبر على المبتدأ في قولهم **(في الدارِ رجلٌ)**، فتقدُّمُ شبه الجملة على النكرة المحضة **(رجلٌ)** يدفعُ أيَّ توهُّمٍ في كون الخبر الذي هو شبه الجملة **(في الدار)** صفةً، والتقديم واجبٌ لأنَّه يدفع هذا التوهم، فالجملة وشبه الجملة إذا وقعا بعد النكرة يعربان صفةً، وفق القاعدة التي تقول إنَّ الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال، وقد وَجَبَ تقديمُ الخبر على المبتدأ لمنع التباس الخبر بالصفة؛ لأنَّ الصفة تأتي بعد الموصوف ولا تتقدم عليه[16].

وتقدُّمُ الخبر **(المسند)** على المبتدأ كثيرٌ شائعُ الاستعمال، لا حصر لشواهده إن في الشعر أو في النثر، وله دلالاتٌ عديدةٌ يمكن رصدُ كلِّ واحدةٍ منها في موطنها، ولكنه ليس هدفاً في حدِّ ذاته، إذ يُستعمل لتحقيق دلالاتٍ معينةً في النص، فقد يفيد القصرَ والاختصاصَ أو غير ذلك من الدلالات المستفادة من السياق، وليس خافياً أنَّ دراسة مظاهر ترتيب العناصر في الكلام تُفضي في جانبٍ من جوانبها إلى الكشف عن السمات الأسلوبيَّة التي تُعلي من قيمة النص[17].

وتتفاوت صور التقديم بالنسبة إلى دلالاتها في التخصيص والحصر، فتكون لازمةً أو غالبةً، وفي ذلك شدٌّ وجذبٌ، وقد لوحظ من خلال التدقيق في هذا النمط الأسلوبي في ديوان كلا الشاعرين – موضوعِ الدَّرس – أنَّ التَّخصيص كان حاضراً بشدَّةٍ خلف تقديم المسند على المسند إليه، وأنَّه هو الأصلُ إذا لم تستدعه الضَّرورة الشعريَّة، وحصول هذا المعنى يكون

من خلال تقديم الظرف والجار والمجرور خاصَّةً، يليه تقديم الخبر المفرد على المبتدأ؛ ذلك أنَّ أشباه الجمل تتميز بقلق المنزلة ومرونة الاستخدام، بغض النَّظر عن الوظائف والدلالات المتنوعة التي يمكن أن تنهض بها شبه الجملة، وقلما تخلو قصيدةٌ في شعر الشاعرين من هذا الأسلوب.

ومع أنَّ تقديم المسند في الجملة الاسمية في ديوان بشار بن برد مرتبطٌ بمعنى التخصيص إجمالاً، إلاَّ أنَّ أغراضه الشعرية تنوعت بين غزلٍ ومديحٍ وعتابٍ وهجاءٍ، ما يتيح تكوين فكرةٍ وافيةٍ عن سيرته الذَّاتيَّةِ من خلال ديوانه الذي لم يصلنا كاملاً، إذ يمكن التقاط العديد من الدلالات المعنوية والنفسية التي يمكن أن تُذكَر في حينها.

وإذا تأملنا ديوان بشار فيمكن أن نقف عند تقديم الخبر وجوباً بسبب تنكير المبتدأ **(المسند إليه)** في الجملة الاسمية[18]، كما في مفتتح ديوانه في قصيدةٍ يغلب عليها طابع المرارة التي يبثها بشار بن برد قائلاً:

إذا ما سـامني الخلطاءُ خسـفاً ... أبـيـتُ، وربَّـمـا نـفـع الإبـاءُ

قضيتُ لبانةً ونسأتُ أخـرى ... وللحاجاتِ وردٌ وانقِـضاءُ

على عيني أبـي أيـوبَ مـنـي ... غطـاءٌ، سـوف ينكشـف الغطـاءُ

جـفـاني إذ نـزلتُ عـليه ضيفاً ... وللضيفِ الكـرامةُ والحِباءُ[19]

إذ يلاحظُ في قوله **(وللحاجاتِ وردٌ)**، وتقديم المسند على المسند إليه واجبٌ لأنَّ المسند نكرةٌ محضة.

ويلاحظ أنَّ الأبيات تشتمل على إسنادٍ تقدَّم فيه الخبر **(المسند)** على **(المسند إليه)** المبتدأ في قوله **(للضيف الكرامةُ)** والمبتدأ معرَّف، وتبرز غاية التَّخصيص في هذه العبارة جليَّةً بسبب حرف الجر **(اللام)** الذي يفيد هذا المعنى صراحةً، إذ هو أصلُ معاني اللام[20].

والوِردُ في هذا البيت هو خروجٌ للشَّراب، ويقصد الشاعر من قوله هذا أنَّه كما أنَّ هنالك خروجاً خاصًّا للشَّراب، فحاجات الإنسان تقتضي تخصيص خروجٍ لها دون سواها لتنقضي على الوجه الأكمل، وعبَّر بشار عن هذا المعنى بهذه الطَّريقة لينبه أنَّه قصد المخاطَب بخروجٍ خاصٍّ دون سواه ليقضي حاجته، وذلك أدعى لتلبية حاجته ومطلبه.

وقد عضد الشاعر هذا الاختصاص باختصاصٍ آخر وقدَّمه بصيغة العموم ضمناً لا صراحةً، فالجملة التي قدَّم فيها المسندَ مقدَّماً على المسند إليه **(للضَّيف الكرامةُ)** جملةٌ خبريَّةٌ تقتضي حكماً يفيد الديمومة والثبوت، ولم يُصرِّح بأنَّه هو الضيف وأنَّ له عليه حقَّ الكرامة، وذلك للوصول إلى غايته ومراده بلطفٍ يُفهم من السياق.

وتشيع هذه الظاهرة كذلك – إن وجوباً أو جوازاً – في شعر أبي العتاهية، إذ نلفي المسند إليه واجب التقديم، كقوله في قصيدته التي يفتتح بها ديوانه إذ يقول:

للحلمِ شاهدُ صدقٍ حينَ ما غَضَبٍ وللحـــــــــليمِ عن العوراتِ إغضاءُ

لـكـلِّ داءٍ دواءٌ عنـد عـــالمــه من لم يكن عالماً لم يدرِ ما الدَّاءُ [21]

إذ كان التقديمُ جائزاً للمسند الخبرِ شبهِ الجملةِ **(للحلم)** على **(المسند إليه)** المبتدأ **(شاهدُ صدقٍ)**، وهنالك تقديمٌ جائزٌ أيضاً في الشطر الثاني حدث من خلال تقديم شبه الجملة **(للحليم)** على المبتدأ **(إغضاء)** ترتيبه قبل التقديم **(إغضاءٌ عن العورات للحليم)**.

ويلاحَظُ أنَّ غرض التخصيص الملازم لحرف الجر **(اللام)** حاضرٌ بقوَّةٍ في هذه المقطوعة، وأنَّ هذه الجمل الاسمية التي أوردها كلا الشاعرين جملٌ خبريَّةٌ تتصف بطابع الديمومة والثبوت، وهذا أمرٌ لا يتعلَّقُ بالشاعرين بقدر ما يتعلق بهذا الأسلوب الخبري الذي يصلح لمثل ذلك.

وقد أفاد التقديم إضافةً إلى التخصيص في البيت **(لكل داءٍ دواءٌ)** تأكيداً للمعنى وتقويةً له من خلال لفظة **(كل)** التي هي من ألفاظ العموم، تفيد الإحاطة بالجميع، وهي تكتسب معناها بحسب ما تضاف إليه، وتُصور الشيء وتحيطُ بجميع ما تدُّل عليه من خلال استغراق أفراد ما تُضاف إليه وأجزائه[22].

ويُشار في هذا الموطن إلى أنَّ قصيدة أبي العتاهية – شأنها كشأن أغلب ديوانه – هي في الزهد والتوبة، وقد قال بشار بن برد العبارة ذاتها في مطلع قصيدةٍ له في الغزل، إذ يقول:

ريقُ سعدى، يابن الدُّجيل، الشِّفاءُ فاسقنيهِ، لكلِّ داءٍ دواءُ[23]

مع التنويه بأنَّ تقديم المسند في شاهد أبي العتاهية جائزٌ لأنَّ النكرة **(دواء)** موصوفة بعبارة **(عند عالِمِه)**، وفي شاهد بشار واجبٌ لأنَّ النكرة **(دواء)** محضة.

ولا بد من التنويه بأنَّ التَّخصيص في الأمثلة السابقة في تقديم الخبر **(المسند)** على المبتدأ **(المسند إليه)** تصدَّره حرف الجر **(اللام)** الذي هو ملازمٌ للتخصيص كما ذكر الزمخشري آنفاً، وهذه ملاحظةٌ ينبغي أن نضعها نصب أعيننا، وهي أنَّ الأداة لها دورٌ في تحديد المعنى، فإذا انتقلنا إلى أشباه جملٍ أخرى تقدَّمت على المبتدأ فيمكن أن نتوقف عند أمورٍ ينبغي الإشارة إليها؛ لأنَّها ذاتُ أثرٍ في التركيب، فصور التقديم بالنسبة لدلالتها متفاوتةٌ، بعضها يدلُّ على التخصيص دلالة لازمةً، وبعضها يدلُّ عليه دلالةً غالبةً، وبعضها يدلُّ عليه أحياناً، وفي كل ذلك مناقشاتٌ ومجاذبات.

فمِمَّا ينبغي الإشارة إليه أنَّ التركيب الإسنادي ربما تضمَّن ضمير الغائب الذي يشير إلى عنصرٍ متقدمٍ، كقول بشار بن برد في قصيدة يخاطب فيها عبدة:

بلا سقمٍ داخلٍ شقَّني سوى الحبِّ إنَّ له جاهدا[24]

فالمسند المتقدم وجوباً مكونٌ من حرف الجر وضمير الغائب العائد على **(الحُبِّ)** الذي كان خلفه مباشرةً ولم يفصل بينهما سوى الحرف المشبَّه بالفعل، وهذه ميزةٌ تضفي على النَّص بعمومه تماسكاً، لأنَّها تربط التركيب الإسنادي بما قبله، ليتضافر التَّماسُك مع التخصيص الذي يبرزه التقديم ليفيدَ أنَّ للحبِ معاناةً وجهداً خاصَّين لا يتوافران على سواه، وقد أفاد تنكير **(الجاهد)** مع التوكيد معنى المبالغة في هذه العبارة.

وينطبق الأمر ذاته على أبياتٍ في الحكمة لأبي العتاهية يقول فيها:

لا تضجرنَّ لضيقةٍ يوماً فإنَّ لها انفراجا[25]

مَن عاجَ مِن شيءٍ إلى شيءٍ فإنَّ له مَعاجا[26]

إذ تضمَّن ضمير الغيبةِ المتقدِّمُ وجوباً إشارةً إلى عنصرٍ سابقٍ في النصِّ، وفصلت الأداة بينهما، وتفاوتَ البُعدُ بين ضمير الغيبة والعنصرِ المشار إليه، فأضفى ذلك كلُّه تماسكاً معنويًّا يضافُ

إلى معنى التَّخصيص المكتسب من معنى حرف الجر ومن تقديم ضمير الغيبة المسند أيضاً، هذا بالإضافة إلى التنكير والتأكيد المرتبط بالأداة، أو بالجملة الاسميَّة التي تعبِّر عن معنى الثبات والديمومة.

ومما ينبغي الإشارة إليه أيضاً أنَّ المسند المتقدِّمُ قد يتكوَّنُ من حرف الجرِّ الذي يليه اسمٌ صريحٌ، كقول بشار بن برد يصف دنَّ الخمرة قائلاً:

وكرشـــاءُ مُلتـــئمٌ فـــي الحريـــرِ كـــــأنَّ بلبَّاتهـــــا جاسِـــــدا[27]

فإيراد المسند اسماً صريحاً يكون من أجل الاهتمام وشدَّة العناية به، وقد قدَّم بشار بن برد المسندَ في هذا المقام ليبين أنَّه يعتني بتعبيراته ويرتبها في خاطره قبل أن ينطق بها.

وقد قال أبو العتاهية في ذكر الموت:

ألا يـــا أخانـــا إنَّ للمـــوتِ طلعـــةً وإنَّـــك مـــذ صُـــوِّرتَ تقصـــد قصـــدها[28]

ويردُ هذا التركيب عادةً للتأكيد على أهميَّة المسند المتقدِّم (الموت) وتعظيمه في هذا المثال، في سياقٍ وعظيٍّ يُذكر بالآخرة، ويفيد أنَّ للموت طلعةً خاصَّة به تختلف عن غيرها من الطلعات.

ومما يُذكر في هذا الصدد أنَّ معنى التَّخصيصِ ينحسر بحسب القرب أو البعد من معنى اللام، ويظهر ذلك من خلال بعض الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها، كحرف الجرِّ **(في)** الذي قال فيه المرادي إنَّ "**مذهب سيبويه والمحققين من أهل البصرة أنَّه لا يكون إلاَّ للظرفية حقيقةً أو مجازاً، وما أوهمَ خِلافَ ذلك رُدَّ بالتأويل إليه**"[29]، وهذا الحرف بهذا المعنى يجعل الشيء يحلُّ فيه غيرُه، فيكونُ ما قبل الحرف مغايراً لما بعده، نحو: السيفُ في الغمد، والمالُ في الكيس، فالسيفُ والمالُ مظروفٌ، والغمدُ والكيسُ ظرفٌ، والظرفُ حاوٍ للمظروف، وهما متغايران[30]، ومن هنا يتَّضحُ أنَّ معنى الاختصاص الذي هو من معاني اللام يمكن أن يضعف، كقول بشار بن برد يصف الرَّقيبِ:

ومُقبـلٍ مُـدبرٍ فـي وجهِـه ضَـخَمٌ كأنَّـــه قـــرصُ زادٍ غيـــرُ مكســـورِ[31]

وأراد بشار بالمقبِلِ المدبرِ الرقيبَ، فصوَّره مشوِّهاً حالة وجهه، وإن قلنا إنَّه قدَّم الخبر على المبتدأ للتخصيص فسنجد أنَّ الاهتمامَ بالمتقدِّمِ والعنايةَ بذكره وتحديدِ مكانه أقوى من معنى التَّخصيص، مع العلم أنَّ بشاراً لم يكن مبصراً، وقد أورد هذا التركيب متلوًّا بتوضيحٍ لهذه الجملة مكوَّنٍ من تشبيهٍ حسيٍّ مجملٍ، إذ أرهق نفسه في محاولة التَّحديد أكثرَ من التَّخصيص، وهذه ميزةٌ يتفوق بها على نظيره أبي العتاهية الذي اتَّكأ على العنصر المعنوي أكثر من اعتماده على العنصر الحسي.

ويمكن أن نلتمس الأمر ذاته في شعر أبي العتاهية في قوله:

الحمد لله <u>في آجالنا قِصَرٌ</u> نبغي البقاءَ <u>وفي آمالنا طولُ</u>[32]

فقِصَرُ الآجال وطولُ الآمالِ ليس خاصًّا بالشَّاعر أو بقومه وخاصَّته، بل هو سنَّةٌ من سنن الله في الخلق، ودلالة تقديم المسند على المسند إليه في هذا البيت تصلح للعناية والاهتمام بالمتقدم، كقوله تعالى { إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ }[33]، فالمَساقُ في ذلك اليوم لا يكون إلاَّ إلى الله سبحانه وتعالى، ولكنَّ تقديم المسند شبهِ الجملة كان للاهتمام به ولمزيدِ العناية بمعناه؛ لأنَّ الأهمَّ في المساقِ أنَّه إلى الله سبحانه وتعالى[34].

ويصدقُ ما قيل قبل قليلٍ على حرف الجرِّ **(على)** الذي تُعدُّ الظرفيَّةُ الحسيَّة الحقيقيَّة أو المعنويَّة المجازيَّة من أوَّل معانيه وأبرزها، ولم يُثبِت له أكثرُ البصريين غير هذا المعنى، وتأولوا ما أوهمَ خِلافَه[35]، فقد ذكر بشار بن برد أبياتاً قدَّم فيها شبه الجملة على المبتدأ قائلاً في المدح:

يضـــمُّ ســـلاحُه مَلِكـــاً هامـــاً <u>عليـــه مهابـــةٌ</u> ولـــه اقتصـــادُ[36]

إذ يظهر معنى التَّخصيص هنا جليًّا من خلال تقديم الخبر وذلك عنايةً بمهابة هذا الممدوح ومحاولة إبرازها دون سواها من غير تعرُّضٍ لمهابة غيره بإثباتٍ ولا نفي، فمهابة الممدوح مهابةٌ خاصَّةٌ ليست كأيِّة مهابةٍ، ولكنَّ هذا التخصيص يبدو أخفَّ حدَّةً إذا ما قورن بجملة **(له اقتصادُ)**

التي تلتها، وذلك لوجود حرف الجر اللام؛ لأنَّ دلالة الظرفيَّة المعنويَّة المرتبطة بحرف الجرِّ **(على)** ظاهرة.

وتتكرر هذه الملاحظة مع أبي العتاهية في إحدى زهدياته التي يقول فيها:

الغــيُّ مــزدحمٌ عليــه وعــورةٌ والرُّشــدُ سَــهلٌ مــا عليــه زِحَــامُ[37]

إذ يُلاحظ أنَّ الاستعلاء في شبه الجملة هنا مجازيٌّ أيضاً، وهذا ما جعل حدَّة التَّخصيص تتضاءل على حساب معنى الظرفيَّة المعنويَّة المتعلقة بحرف الجر **(على)**.

ويُشار في هذا المقام إلى أنَّ صيغة السلام المتعارف عليها **(السلام عليكم)** تبدأ بإيراد المسند إليه يتلوه المسند، والتي يكون ردُّ الجواب فيها مخصَّصاً من خلال عكس ترتيب الإسناد **(عليكم السلام)**، وهذا الاستعمال شائعٌ، إذ ورد عند بشار في الحنين إلى حبيبته وقد زُوِّجَت، فقال:

إذا رَكِبَت منَّا بليلٍ فقل لها: عليكِ سلامٌ ماتَ من يتزوَّجُ[38]

وقد ورد في الحديث عن أبي جُريٍّ الهُجيمي ﷺ أنَّه قال: **"أتيت النبيَّ ﷺ فقلتُ: عليكَ السلامُ يا رسول الله. قال: "لا تقل عليك السلام، فإنَّ (عليك السلام) تحيَّةُ الموتى"**[39].

والمقصود من قوله عليه الصلاة والسلام أنَّ هذه العبارة إشارةٌ إلى ما تعارف عليه الشعراء وغيرهم أنَّ السلام على الأموات يكون بهذه الصيغة، وقد ذكر محقق الديوان أنَّ بشار بن برد قد أبدع في قوله **(عليكِ سلامٌ)** لأنَّ هذه تحيَّة الموتى بتقديم **(عليك)** على لفظ السَّلام؛ إذ رأى بشار أنَّ زواجَ محبوبته عنده بمنزلة موتِها.

وإذا تتبعنا تقديم المسند في هذا التركيب تحديداً وُجِدَ مُطَّرداً في ديوان بشار، كما في قوله يعاتب أحدهم:

لا نائــــلٌ منــــكَ ولا موعــــدٌ ولا رســــولٌ فعليــــكَ الســــلامْ[40]

إذ أراد بشار من إيراد المسند مقدَّما الإشارة إلى أنَّه يئس من نوال هذا المخاطَب وعطائه مطلقاً، وهذا التركيبُ مطَّرِدٌ في عُرفِ الشُّعراء، ونجده حاضراً في شعره وشعر غيره، كما في قوله يرثي أحد أصدقائه ويذكر سآمة العيش بعده:

كان لي صاحباً فأودى به الدَّهْ ـــرُ وفـــــارقتُهُ عليه السَّلامُ[41]

ويظهرُ هذا الأمر بوضوحٍ في شعر أبي العتاهية الذي لم يخرج عن سنَّة الشعراء في قوله مخاطباً الأموات:

أَهلَ القُبورِ عَلَيكُمُ مِنّي السَلام إِنّي أُكَلِّمُكُم وَلَيسَ بِكُم كَلام[42]

وقوله:

كَم مِن أَخٍ قَد حيلَ دونَ لِقائِهِ قَلبي إِلَيهِ مِنَ الجَوانِحِ يَنزِعُ
شَيَّعتُهُ ثُمَّ انْصَرَفتُ مُوَلِّياً عَن قَبرِهِ مُستَعبِراً أَستَرجِعُ
فَعَلى الصِبا مِنّي السَّلامُ وَأَهلِهِ ما بَعدَ ذا في أَن أُخَلَّدَ مَعمَعُ[43]

إذ سلَّم على الصِّبا وأهله سلامَ الحيِّ على الميت؛ لأنَّه قطع الأمل من رجوعه، وزاد المعنى جمالاً سلامُه على أهل الصِّبا الذين ربما يكون منهم بقيَّةٌ، ولكنَّه أراد من ذلك المبالغة في التعبير.

ومما قاله أبو العتاهية في مثل ذلك أيضاً قوله في الوعظ:

كُلَّ يَومٍ يَحُطُّ آجالَنا الدَهـ ـرُ وَيَدنو إِلى النُفوسِ الحِمامُ
لا نُبالي وَلا نَراهُ غَراماً ذا لَعَمري لَوِ اِتَّعَظنا الغَرامُ
مَن رَجَونا لَدَيهِ دُنيا وَصَلنا هُ وَقُلنا لَهُ: عَلَيكَ السَلامُ[44]

فبعد أن ذكر واقع حال النَّاس وقدَّمَ مقدِّمةً يُحذِّرُ فيها من الغفلة عن المآل المحتوم الذي يدنو من المرء يوماً بعد يومٍ، ذكر أنَّ السلام على الحيِّ الذي يمتلك من ناصية الدُّنيا شيئاً يكون من خلال إلقاء سلام الأموات عليه باعتبار مآله لا باعتبار حاله، وقد علق ابن عاشور على بيت بشار الذي يقول فيه:

عبدَ يا هِمَّتي: عليكِ السلامُ فيمَ يُجفى عبدُكِ المُستهامُ[45]

بأنَّه خالف التفرقة الدقيقة بين السَّلام على الحيّ والميت عندما قال لمحبوبته عبدة **(عليكِ السلامُ)**، وعلل لتلك المخالفة بأنَّها ضرورةٌ شعريَّةٌ، ولو شاء لقال **(إليكِ السلام)**،[46] وربما تعمَّد الشَّاعرُ ذلك للدلالة إلى أنَّه فقد الأمل من وصالها كما يُفقَدُ الأملُ من وصل الأموات.

وقد ورد هذا التركيب دون أن يطرأ عليه تغييرٌ في عبارة السلام عند أبي العتاهية في قوله:

سَـــلامٌ عَلى أَهلِ القُبورِ الدَوارِسِ كَـأَنَّهُمُ لَم يَجلِســـوا في المَجـالِسِ[47]

وهذا التركيب ليس فيه تقديمٌ ولا تأخيرٌ، والكلامُ فيه يكون على تعريف الإسناد وتنكيره، إلاَّ أنَّ الغرض منه هو التعظيم في المحصِّلة، وخيرُ دليلٍ عليه هو الآيات التي ذُكرت في حقِّ بعض الأنبياء في مواطن كثيرةٍ في القرآن الكريم، وأبرزها ما جاء في سورة الصَّافَّات[48].

وبعد هذه النظرة الموجزة يمكن القول إنَّ شواهد تقديم المسند على المسند إليه في الجملة الاسمية كثيرةٌ وغزيرةٌ، كما هي الحال في أبيات أبي العتاهية حين يقول:

ألا كـــلُّ مـــا هـــو آتٍ قـــــريبُ ولـــلأرضِ مـــن كـــلِّ حـــيٍّ نصـــيبُ

وللـــنَّاسِ حـــبٌّ لطـــول البقـــا ءِ فيهـــا، وللمـــــوتِ فـــيهم دبيـــبُ

وللـــدَّهرِ شـــدٌّ علـــى أهـــله فبـــينٌ مُشِـــتٌّ ونـــبـــلٌ مُصـــيبُ[49]

ولوحظ من خلال تقصي الأمثلة ذات الصلة أنَّ تقديم الخبر المفرد **(المسند)** على المبتدأ **(المسند إليه)** كان تركيباً نادراً عند الشاعرين، بخلاف تقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ كما هو واضحٌ من النماذج السابقة، التي يوجد من أضرابها العشرات من النماذج في كلا الديوانين، وهو كفيلٌ بإظهار فروقاتٍ فرديَّةٍ تميز العديد من الاستعمالات التي يتَّسمُ بها أسلوب كلِّ شاعرٍ من الآخر.

2- في الجملة المنسوخة: الأصل في ترتيب الجملة الفعلية أن يتصدر الفعلُ **(المسند)** الجملةَ، فإن سبقه الاسمُ **(المسند إليه)** فإنَّ ذلك ينقلها من نطاق الفعليَّة إلى نطاق الاسمية، ولا يكون هنالك تقديم حينئذٍ، لأنَّه ينقل الشيء من حكمٍ إلى حكمٍ آخر، ويُجعَلُ في غير بابه، فيتغيَّرُ إعرابه.

فإن تصدَّرت الحروفُ المشبهة بالفعل الجملة الاسمية فإنَّ الجملة تبقى اسميَّةً، فتبدأ بالحرف النَّاسخ يليه الاسمُ فالخبر، ولا يترك أيٌّ من هذه العناصر مكانه إلاَّ بمسوغٍ؛ لأنَّ الحرفَ النَّاسخ لم يتصرفُ تصرُّف الأفعال، ولم يبلغ قوَّة الفعل الذي شُبِّه به، فهو جامدٌ ذو رتبٍ محفوظةٍ[50].

أمَّا إن كان الخبرُ ظرفاً أو جارًّا ومجروراً فيجوز فيه التقديم والتأخير، "**فلا يجوز أن تقول: إنَّ منطلقٌ زيداً، ويجوز أن تقول: إنَّ في الدار زيداً، وذلك أنَّهم قد توسعوا في الظروف وخصوها بذلك لكثرتها في الاستعمال**"[51]، فإن تصدَّرت الأفعالُ الناسخة الجملة الاسمية فإنَّ معنى الإسناد ينعدم في هذه الأفعال لأنَّها لا تتميز بما يتميز به الفعل من حيث المبنى والمعنى[52]، ولكنَّ الجملة تُعامَلُ معاملة الجملة الفعلية[53].

وإذا نظرنا إلى الأفعال النَّاسخة فإنَّنا نجد أنَّها يجوز أن يتصدر خبرُها الجملة، أو أن يتوسط بين الفعل الناسخ والاسم، نحو: **قائماً كان زيدٌ، وكان قائماً زيدٌ**؛ لأنَّ هذه الأفعال – كما ذكر سيبويه عن الخليل – تعمل عملين هما الرفع والنَّصب، وتتصرَّفُ تصرُّف الأفعال، ويُضمر فيها المرفوع، ويجوز فيها تقديم المفعول على الفاعل أو الخبر على الاسم عموماً، ويجوز تقديم الخبر على الاسم إن تساويا في التعريف، وهذا ما لا يجوز في الحروف المشبهة بالفعل لكونِها فروعاً على الأفعال في العمل[54]، وهي بمجملها تدلُّ على معنيين اثنين أحدُهما مرتبطٌ بالزَّمن مجرداً من الحدث، والآخر مرتبطٌ بالنَّفي الذي تختصُّ به الأداة **(ليس)**، ولكنَّ ذلك لا يعني التقليل من شأن الحروف المشبَّهة بالفعل، فهي تحمل في طيَّاتها تنوعاً معنويًّا لا يتوفر للأفعال الناسخة.

والحكم في الجملة المنسوخة مقيَّدٌ، وللقيد – إن كان فعلاً أو حرفاً ناسخاً – أثرٌ بارزٌ يمكن الوقوف عنده وتأمله لاستخراجِ بعض المظاهر التي تعكس بعضاً من جودة الصناعة ومهارة الأديب التعبيرية التي يبوح من خلالها بأفكاره وأحاسيسه وخواطره، مستنداً إلى خاصيَّة اللغة العربية في السماح بتغيير مواقع الكلمات في اللغة، وكما ذُكِر قبل قليل، فإنَّ الجملة بعد النواسخ مقيدةٌ بالأفعال الناسخة، وقد تأتي مطلقةً مكونةً من اسمٍ وخبر، فإذا

تقدَّم المتأخِّر وتأخر المتقدم فإنَّ ذلك يعدُّ قيداً بذاته، ونكون هنا أمام قيدين، نحاول أن نقف عند معناهما لتأمله وتوضيحه، إضافةً إلى مقدرة الرصف التي يقدمها كلٌّ من الشاعرين.

وجديرٌ بالذكر أنَّ أخبار الجمل المنسوخة التي طرأ عليها تغيير في الرتبة عند كلا الشاعرين تكون شبه جملةٍ غالباً، إلاَّ أنَّها نادراً ما تكون اسماً مفرداً، إذ رُصدت بعض الأبيات عند الشاعرين، فكان منها ما ذكره بشار في قوله في محبوبةٍ فارقت جيرته وحلَّ في سكنها قومٌ آخرون:

لا أراني أعيشُ قد ظعن الحبُّ وحفَّـــت بيـــوتيَ الأعـــداءُ

ذهبَ النَّاصِحُ الشفيقُ وأمسى جـارَ بيتـي البغـيضُ هـذا الـبلاءُ[55]

وإذا أردنا أن نقف عند الغرض الدلالي من تقديم المسند في هذه الأبيات فإنَّنا سنلاحظ أنَّ الغرض من تقديمه هو تأكيد أهميَّته في نظم الكلام؛ فالعَرَبُ "**يقدِّمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى**"[56]، وبشار يريد من تقديم المسند إبراز المتقدم ولفت الانتباه إلى الهم الذي يعانيه بسبب هذا التبديل الذي طرأ في الجوار.

ويلاحظ أنَّ الشاعر أردف هذا التركيب الإسنادي بجملةٍ تشير إليه، فكان لهذا الربط فضلُ تماسكٍ من جهة التركيب والمعنى، وكان طرفا الإسناد في الجملة الرديفة معرَّفين (**هذا البلاءُ**)، فأفاد تعريفُ طرفي الإسناد أسلوب قصرٍ أفاد أنَّ كلَّ البلاء مقتصر على ما طرأ عليه من مجاورة البغيض.

وفي ديوان أبي العتاهية قوله:

أليسَ قريباً كلُّ مـا هـو آتِ فمـا لـي ومـا للشـكِّ والشُّـبُهاتِ[57]

فإذا أردنا أن نقف عند الغرض الدلالي من تقديم المسند في هذه الأبيات فسنلاحظ أنَّ الغرض هو العناية بالمتقدم؛ لأنَّ عادة العَرَبِ تقديم الذي هم ببيانه أعنى، وقد كان أبو العتاهية حريصاً على إيصال رسالته المشوبة بالحكمة من خلال الاستفهام التقريري الذي ابتدأ به كلامه (**أليس قريباً؟!**)، وحذفَ الإجابة عن هذا السُّؤال وكأنَّها إجابةٌ ليس عليها خلاف، ثم استأنف عبارته بجملةٍ أخرى تعتمد على هذا الإيجاب المحذوف، وقد نكَّر المسند (**قريباً**) فأفاد التنكيرُ في سياق النفي والتقريرِ قلَّةً، أي قليلاً من القرب أو بعضَ القربِ، وكانت غاية هذه العبارة التحذيرَ، ضمن قيم الحكمةِ المبثوثة في ديوانه.

وإذا أردنا أن نلاحظ فرق التركيب وأثره فيمكن أن نورد له عبارةً شبيهةً بهذه العبارة يقول فيها أبو العتاهية:

وليس بعيداً كلُّ ما هو كائنٌ وما أقربَ الأمر البطيءَ لمن عاشا[58]

فهي في سياق النفي، ولكنَّها جملة خبريَّة تخضع لمعيار الصدق والكذب، وليست إنشائيَّة كالجملة التي أوردها في القطعة السابقة، وقد تلتها جملةٌ استئنافيَّةٌ **(وما أقربَ الأمرَ البطيء لمن عاشا)**، فبالرغم من الصلة المعنوية بين العبارتين إلاَّ أنَّ الربط فيها لم يكن متيناً بمتانة التركيب السابق الذي بدأ بالفاء **(فمالي وما للشكِّ والشُّبُهاتِ)** إذ ربطت العبارة السابقة باللاحقة.

أ- تقديم المسند جوازاً: تعدُّ دراسة تقديم المسند على المسند إليه بعد الأفعال النَّاسخة امتداداً لدراسته بعد الحروف المشبَّهة بالفعل، فدلالات التقديم هنا هي ذاتها هناك، إلاَّ أن خصوصيَّة هذه النواسخ تظهر جليَّة في استفادة الشاعرين من معاني هذه القيود التي لها تقييدٌ دلاليٌّ يتعلق بالزَّمن، أو السلب، أو تحديد المشاعر المصاحِبَة للحُكم، أو الظُّروفِ المحيطة به[59].

ويمكن أن نرى أثر هذه الأفعال النَّاسخة في الجملة المنسوخة، إذ قال بشار بن برد أبياتاً في عبدة جاء فيها:

وإنّي لَمُستَشفِي عبيدةَ إنَّها بدائي – وإن كاتمتُه – لطبيبُ
لقد شَغَلَتْ قلبي عبيدةُ في الهوى فليس لأخرى في الفؤادِ نصيبُ[60]

فالغرض الدلالي والمقصد المعنوي لتقديم المسند وتأخير المسند إليه في قوله **(فليس لأخرى في الفؤاد نصيب)** تغلب عليها دلالة القصر عموماً، وخصوصاً مع الفعل الناسخ (ليس) الذي يدلُّ على النفي، هذا إذا وضعنا نصب أعيننا "**أنَّ النفي حين يدخل على المسند الجار والمجرور المقدَّم تكون دلالته على القصر دلالةً لازمةً، فإذا قلت: ليس عليك حرجٌ في فعل كذا، أفدتَ أنَّ نفي الحرج خاصٌّ به، وأنَّ غيره إذا فعل كان عليه حرجٌ، وكأنك تريد: ليس**

عليك، بخلافِ غيرِك، فإنَّه عليه حرجٌ، وإذا أردتَ مجرَّدَ نفي الحرج من غير هذه الإشارة فقل: لا حرج عليك في فعل كذا"[61].

ونجد في هذا الموطن أنَّ تقديم (المسند) الجار والمجرور على المسند إليه في النفي نصٌّ على أنَّ المتقدِّم خبرٌ لا نعتٌ؛ لأنَّ ردَّ التركيب إلى أصله يوهم بأنَّ المسند **(لأُخرى)** نعتٌ لا خبرٌ، "**لأنَّ حاجة النَّكرة إلى النعت أشدُّ من حاجتها إلى الخبريَّة**"[62].

وفي قول بشار بن برد (لأخرى) تنكيرٌ للمسند، وهذا التنكير يدلُّ على عمومٍ يقتضي نفي وجود محبوبةٍ أخرى أيًّا كانت، وتوكيدٌ من بشار لمكانة محبوبته في قلبه، ولكنَّ هذه جملةٌ خبريَّةٌ تحتمل الصدق والكذب، وإذا لم يؤكدها الشاعر فقد يشفع له أنَّه سبق هذا البيت ببيتٍ حشد فيه مؤكداتٍ **(وإني لمستشفٍ..)** مهَّدت لهذا البيت خالياً منها.

وفي الطرف الآخر نجد عند أبي العتاهية أبياتاً في الحكمة يقول فيها:

ولـذَّاتُ أهـلِ الفضـلِ بـيضٌ نقيَّـةٌ وألسُـنُ أهـلِ الصِّـدقِ لا تـتلجلجُ

ولـيس لمخلـوقٍ علـى الله حجَّـةٌ ولـيس لـه مـن حُجَّـةِ اللهِ مَخـرجُ[63]

إذ أفاد تنكيرُ المسند **(لمخلوقٍ)** العمومَ والشُّمولَ، وكان لتقديم **(المسند)** الجارِّ والمجرورِ على المسند إليه فضلُ التَّخصيصِ وقصرِ النَّفي على كل المخلوقين وإثباته في الوقت نفسه لله تعالى وحده، وقد أردف أبو العتاهية هذه العبارة بعبارةٍ أخرى منفيَّةٍ في عجُز البيت، تقدَّم فيها المسند **(له)** الذي أشار إلى العبارة السابقة رابطاً بين الجملتين فنتج عن ذلك تماسكٌ في النَّص، وكانت دلالةُ التخصيص ظاهرةً من خلال تقديم المسند الذي هو حرف الجرِّ اللام مع ضمير الغيبة، إلاَّ أنَّ حدَّة هذا التخصيص تضاءلت أمام خاصيَّة العموم والشمول التي أفادها تنكير المسند (لمخلوقٍ) في الجملة السابقة، يضاف إلى ذلك طريقة أبي العتاهية التي يحبذ فيها حشد الجمل الخبريَّة متتاليةً بعضها خلف بعض، ليظهر هذا النصُّ خلواً من المشاعر.

ويمكن أن نقدم مثالاً آخر لأبي العتاهية في موقفٍ من مواقف الرثاء التي رثى فيها صديقه عليَّ بن ثابتٍ الأنصاري إذ قال:

بكيتـك يـا علـيُّ بـدمع عينـي فمـا أغنـى البكـاءُ عليـكَ شـيًّا
وكانـت فـي حياتـك لـي عظـاتٌ وأنـت اليـومَ أوعـظُ منـك حيًّـا[64]

إذ يُلاحظ أنَّ المسند المتقدِّم **(في حياتك)** يدلُّ على القصر والتَّخصيص، أي في حياتك أنت دون حياة سواك، ولذلك قدَّمه في الكلام تنبيهاً إليه واعتناءً به، إشارةً إلى أنَّ حياته لم تكن كحياة غيره من النَّاس، ومع أنَّه أخَّر المسند إليه فإنَّ ذلك لم يُقلِّل مِنَ العناية به، فتنكير المسند إليه الذي أفاد التكثير والتَّعظيم كان كفيلاً بتسليط الضَّوء عليه وإعادته إلى دائرة الاهتمام، ولكنَّ الذي جعل هذه القطعة باهتةً برغم احتفاء كثيرٍ من كتب التراث العربي بها، أنَّها خلت من الأساليب الإنشائيَّة التي يجب أن تكون حاضرةً في مثل هذه المناسبات والتراكيب اللغويَّة، باستثناء جملة النداء المعترضة.

ب- تقديم المسند وجوباً: يتقدم الخبر (المسند) على المبتدأ (المسند إليه) وجوباً – كما ذكر آنفاً – فيما إذا وقع المبتدأ نكرةً محضةً وكان الخبرُ شبه جملةٍ (ظرفاً أو جارًّا ومجروراً)، إذ يجب تقديمُ المسند فيما وقع فيه المبتدأ نكرةً والخبرُ ظرفاً أو جارًّا ومجروراً، فإذا سُبِقَ ركنا الإسناد بإحدى الأدوات النَّاسخة فإنَّ التزام تقديم المسند على المسند إليه في حال وقوع المسند نكرةً محضةً يظلُّ كما هو، وتكون الأداة قيداً لهذا التركيب، ويتعلق هذا القيد بالزَّمن أو السَّلب، ومن ذلك قولُنا: كان عندك رجلٌ، وكان في الدَّارِ رَجُلٌ[65].

وإذا نظرنا إلى ديواني الشاعرين موضوع الدَّرس فإنَّنا سنجد أنَّ هذا التركيب (تقديم المسند) كان ظاهرةً بارزةً لكلا الشاعرين، وإن تفاوتت نسبة ذلك بينهما، فقد كان بشار بن برد الأرجح كفَّةً في غزارة الإنتاج وتنوعه، فقد كان له في تقديم المسند على المسند إليه في الجملة الاسمية قدمٌ راسخةٌ، إذا وضعنا نصب أعيننا أنَّ الكثير من شعره لم يصل إلينا، ويمكن أن نستعرض بعض الأبيات التي كان تقديم المسند فيها جائزاً للوقوف على الدلالات الأدبية لهذا التقديم، كقول بشار في قصيدة يمدح فيها روح بن حاتم ويهجو بعض قبائل العرب، ويمدح بعضها:

ومـا زال فـي آل المهلَّـبِ نـائـلٌ وخيـلٌ تُسـرَّى للطعـانِ وتُجلَـبُ[66]

إذ كان المسند إليه نكرةً محضةً أوجبت تأخيره ليحلَّ المسند محلَّه، وقد أفاد تقديم المسند التخصيص، وكان لحرف الجر (في) أثرٌ في ترسيخ هذا التخصيص من خلال معنى الظرفيَّة الملازمة لهذا الحرف، فدلَّ على أنَّ نوال آل المهلَّب نوالٌ مميَّزٌ من سواه في بقيَّة القبائل، ودلَّ تنكير المسند إليه على أنَّ نوالهم عظيم.

وبما أنَّ هذه الأداة النَّاسخة (ما زال) التي تقدَّم بعدها المسند على المسند إليه وردت في شعر أبي العتاهية أيضاً، فيمكن أن نرى أنَّ هنالك ميزةً عامَّةً تميَّز فيها هذا من ذاك، إذ قال أبو العتاهية:

وما زال من قومي خطيبٌ وشاعرٌ وحـاكِمُ عـدلٍ فـاصـــلٌ مُتثبِّـتُ[67]

إذ تقدَّم المسند على المسند إليه وجوباً لأنَّ المسند إليه كان نكرةً محضةً، وأفاد تقديم المسند التخصيص، ولكنَّ حدَّة هذا التخصيص خفتت لأنَّ دلالة التَّبعيض ألقت بظلالها على المعنى، وكان بإمكان أبي العتاهية أن يقول (وما زال في قومي خطيبٌ وشاعرٌ)، إلاَّ أنَّ هذا التحديد والتخصيص كان باهتاً في شعره إلاَّ ما تعلَّق منه بالحديث عن ذاته هو وعن الذَّات الإلهيَّة، إذ لا تجد له مثالاً تقدَّم فيه المسند المبدوء بحرف الجر **(في)** على المسند إليه النكرة المحضة في كل ديوانه، في حين تكرر ذلك عند بشار في مواطن عديدة، كقوله:

يـا حُـبَّ عبـدةَ قـد رجعتَ جـديـدا مـا كنـتُ أحسِـــبُ هـالكـاً موجودا
لله درُّك من خليطٍ شـــاغِفٍ هـل ينـفعنَّـك أن أبيـتَ عميـدا
إن كان في طولِ الصـحابةِ عبرةٌ فلقد صـــحبتكَ شـــائباً ووليدا[68]

إذ يدلُّ هذا المثال الذي تقدَّم فيه المسند على المسند إليه وكان غنيًّا بالأساليب الإنشائيَّة المعبِّرة من نداءٍ لغير العاقل **(يا حبَّ عبدة)** إلى تعجُّبٍ **(لله درُّك)** واستفهامٍ إنكاريٍّ **(هل ينفعنَّك)** وصولاً إلى تحديد المعنى وتخصيصه في قوله **(في طول الصَّحابة)** الذي توحي دلالة التقديم فيه أنَّ هنالك عبرةً خاصَّة ناتجةً عن طول الصُّحبة بين المحبِّين، ثم توكيده بقوله **(فلقد صحبتك شائباً ووليدا)** الذي أنهى فيه هذه الأبيات بتركيبٍ مكوَّنٍ من **(قد)** التَّحقيقيَّة التي سبقت الفعل الماضي فأفادت أنَّ هذا الأمر تمَّ وانقضى، فالشَّاعِرُ لديه تجربة إنسانيَّة وطاقة تخييلية تُرضي المتلقي وتروي شغفه، وهذا الأمر ليس متعلقاً بهذا المقطع، بل هو سمةٌ عامَّةٌ لشعره.

المبحث الثاني: تقديم المسند إليه:

تفضي دراسة مظاهر ترتيب العناصر في الكلام وإظهار دلالات ذلك في جانبٍ من جوانبها إلى الكشف عن السمات الأسلوبيَّة التي تعلي من قيمة النص[69]، ويمكن البدء بالحديث عنها من عدة محاور رصدها البلاغيون، ومنها:

أ- تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي: قدَّم عبد القاهر الجرجاني ما له صلةٌ بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي من خلال عرض صورٍ من الكلام الرفيع، يمكن التقاط أشباهها عند النظر في شعر أبي العتاهية وبشار بن برد، فقد تلاحَظُ معانٍ إضافيَّةٌ في تقديم المسند إليه المعرفة على الجملة الخبرية المثبتة، فإنه إذا كان معرفةً، كما في قولهم: "**أنا فعلتُ**" فإنَّ خلف هذا التركيب غرضين، هما: **الاختصاص وتقوية الحكم وتوكيده.**

الأول: الاختصاص: عرَّف الجرجاني هذا الغرض بقوله: "**أن يكون الفعلُ فعلاً قد أردتَ أن تنصَّ فيه على واحدٍ فتجعله له، وتزعُمَ أنه فاعلُه دون واحدٍ آخر، أو دون كلِّ أحدٍ**"[70]، وهذا يعني أنَّ الفعل في سياقه خاصٌّ بالمسند إليه لا يتعداه إلى غيره، ومن ذلك قولهم: "**محمدٌ يعطي الجزيل**"، إذا كنت تريد أنه لا يفعل ذلك سواه، أو أنه يفعل ذلك دون واحدٍ آخر[71].

ولا نعدم مثل هذه الدلالات في ديواني الشاعرين، فمما دلَّ على **الاختصاص** قول بشار يفتخر بالفرس ويذكر نصرهم لبني العباس وظهور الدعوة العباسية من بلخٍ وخراسان[72]:

نحنُ جلبنا الخيلَ مِن بـلْـخٍ بغيرِ الكَذِبِ[73]

وسياق الكلام هنا سياق فخرٍ وإدلال على العرب ومِنَّةٍ على بني العباس، وتقديمُ المسند إليه هنا يفيد الاختصاص، أي أنَّ هذا الفعل لم يفعله أحدٌ سواهم، وفي مثل هذه الدلالة يقول أبو العتاهية في الزهد:

هي النفسُ لا أعتاضُ عنها بغيرها وكـلُّ ذوي عقـلٍ على مثلهـا يحنو
لهـا أطلـبُ الأخرى فـإن أنـا بعتهـا بشـــيءٍ من الـدنيـا فـذاك هو الغبنُ[74]

وسياق الكلام هنا سياقُ وعظٍ وحكمة، وتقديم المسند إليه يفيد أنَّه معنيٌّ بنفسه دون سواه بهذه النصيحة، لأنَّ لكلِّ إنسانٍ ما سعى وسوف يحاسب على عمله ولن يحاسب عليه أحدٌ سواه، ولذلك خصَّ نفسه بهذه النصيحة دون سواها.

الثاني: تقوية الحكم وتوكيده: وقد مثَّل عبد القاهر على ذلك بقوله: "**هو يعطي الجزيل، وهو يحبُّ الثناء**"، فيكون المراد من تقديم المبتدأ الذي هو فاعلٌ في المعنى"**أن تحقق على السامع أنَّه قد فعل، وتمنعه من الشك**"، ولذلك يكون البدء به قبل ذكر الفعل؛ لكي تبعد عن السامع أي شكٍّ أو خلطٍ أو تزيُّدٍ[75].

ومما يمكن أن يُقدَّم في هذا الغرض دالاً على **تقوية المعنى وتوكيده** قول بشار في الغزل:

أنا – والله – أشتهي سحر عينيـ ـــــكِ وأخشـــى مصـــارع العُشَّـــاقِ[76]

فهو يحبُّ محبوبته ويورد المعنى بهذه الطريقة من خلال تقديم المسند إليه، ثم يقسم على ذلك قبل ورود الخبر بالجملة الاعتراضية في هذا المقام زيادةً في التوكيد، ثم يذكر عواقب العشق التي يمكن أن تودي به إلى المهالك، مجتهداً في تبرير أي تقصيرٍ يمكن أن يبدر منه في العشق.

وهذا الأسلوب شائع في ديوان أبي العتاهية، ومقترنٌ بغرض الزهد الذي طغى على ديوانه المطبوع بطابع التشاؤم، ويمكن ملاحظة ذلك في قصيدةٍ يرثي فيها رسول الله ﷺ قائلاً:

أفـي كـلِّ يـومٍ نحـنُ نلقـى جنـازةً وفـــي كـــلِّ يـــومٍ نحـــن نســـمع ناعيـــا
وفـي كـلِّ يـومٍ منـك نرثـي لمعـولٍ وفـــي كـــلِّ يـــومٍ نحـــن نســـعِدُ باكيـــا[77]

إذ بدأ قصيدته بالدعوة إلى البكاء، ووصل إلى هذه الأبيات مفتتحاً إيَّاها باستفهامٍ إنكاريّ، أظهر لنا من خلاله شيئاً من تشاؤمه، وقد حشد أبو العتاهية هذا الأسلوب في هذه الأبيات فقدَّم المسند إليه ليفيد مشهداً شموليًّا يؤكد فيه حتمية هذه السنن وجريانها على كل الأحياء، وهذا ليس تعريضاً بأحدٍ، وإنمَّا تحقيقًا يضع السامع أمام هذه الوقائع الحتميَّة التي لا تستثني أحداً.

ب- تقديم المسند إليه بعد الاستفهام: توقف عبد القاهر الجرجاني عند بعض المسائل المتعلقة بالتقديم والتأخير فيما يتصل بالاستفهام، فتوقف عند الهمزة، وفصَّل القول في مسألتين، إحداهما تتعلق بتقديم المسند إليه، والثانية تتعلق بورود المسند جملةً فعليةً فعلها ماضٍ أو مضارع، فإذا تقدَّم المسند إليه وكان الاسم متقدماً، فقلت: **(أأنت فعلتَ؟! أو أأنتَ تفعلُ؟!)** كان الشكُّ في الفاعل من هو؟ وكان التردد فيه، أمَّا إن كانت البداية بالفعل فقلت: **(أفعلتَ؟!) أو (أتفعلُ؟!)** فإنَّ مركز الثقل الإنتاجي يختلف تبعاً للبعد المكاني للدَّوالِّ، بحيث يتحدَّدُ هذا المركز فيما يلي الهمزة[78].

وأفرد عبد القاهر بعد ذلك حديثاً في دلالة الاستفهام بالهمز وما يليه، فذكر دلالاتٍ أهمُّها التقرير والإنكار، سواءٌ كان التقريرُ للمسند أو المسند إليه، أو كان الإنكار على المسند أو المسند إليه[79]، وهذه دلالاتٌ لا صلة لها بتقديم المسند أو المسند إليه ولا بتأخيرهما، وقد ذكر محمد أبو موسى أنَّه لا يمكن في كثير من الصور ضبطُ معنى الاستفهام، ولذلك فإنَّ اللجوء إلى ذكر جملة معانٍ يعدُّ حيلةً يمكن اللجوء إليها في مثل ذلك[80].

وإذا انتقلنا إلى ديوان كلٍّ من الشاعرين فإنَّنا سنجد أنَّهما قد سخَّرا أسلوب الاستفهام المتلو بالمسند في افتتاحيات عددٍ لا بأس به من قصائدهما، لأنَّ الاستفهام أسلوبٌ إنشائيٌّ إن خرج عن معناه الأصلي ولم يُقصَد لذاته فإنَّه يُصنَّفُ ضمن الأساليب الإنشائيَّة التي تتيح للنفس المشحونة بالمعاني تفريغ أحاسيسها وفيوضِ مشاعرها، بخلاف الأسلوب الخبري الذي يجيء بخطًى ثابتة الأقدام، ويبعث في النفوس دلالات التأكيد، ويُشيع معاني الأمان والاطمئنان[81].

وقد رصدت كتب البلاغة الكثير من الدلالات التي يخرج فيها الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى للتعبير عن هواجسَ مختلفة تُستفاد من السياق، فكان هنالك الكثير من القصائد المستهلة بهذا الأسلوب في الشعر العربي، والتي يمكن الوقوف عندها بوصفها ظاهرةً يعتني بها الشعراء في قصائدهم وتصدر من أعماق نفوسهم، ترافقها ظاهرة التصريع بوصفه محسِّناً لفظيًّا يعدُّ سنَّةً متوارثةً الغاية منها لفت انتباه السَّامع، ومن ذلك ما جاء في ديوان أبي العتاهية:

1	أغرَّكَ أنّي صرتُ في زيّ مسكينِ		وصرتَ إذا استغنيتَ عنّي تُنحّيني	398
2	أشاقكَ من أرضِ العراقِ طلولُ		تحمَّلَ منها جيرةٌ وحُمُولُ	599
3	أجفوتني فيمن جفاني		وجعلتَ شأنك غير شاني	655
4	حتى متى تصبو ورأسُك أشمطُ		أحسبتَ أنَّ الموتَ باسم يغلطُ	205
5	مالي رأيتك راكباً لهواكا		أظننتَ أنَّ الله ليسَ يراكا	263
6	أنلهو وأيامنا تذهبُ		ونلعبُ والموتُ لا يلعبُ	38
7	أتبكي لهذا الموتِ أم أنت عارفُ		بمنزلةٍ تبقى وفيها المتالفُ	243

ومن ذلك أيضاً افتتاحيات بعض قصائد بشار بن برد:

1	أأبكاك داعٍ في الصباحِ سميعُ		وطيفٌ سرى من نهروانَ يريعُ	102/4
2	أأحزنكَ الأولي ظعنوا فساروا		أجلْ؛ فالنومُ بعدهمُ غرارُ	247/3
3	أأرقتَ بعد رقادك الأوَّابِ		بهواكَ أم بخياله المنتابِ	241/1
4	أهجرتَ عبدةَ أم عداك مسيرُ		لا بل تُلِمُّ بأهلها وتدورُ	164/3
5	راجعتَ دينكَ أم عنَّتْ لك الذُّكَرُ		أم ما بدا لك لا تصحو ولا تَقِرُ	158/3
6	عدمتك عاجلاً يا قلبُ قلبا		أتجعلُ من هويتَ عليك ربَّا	190/1

ويُلاحظ في كل ما سبق من هذه الأمثلة لكلا الشاعرين أنَّ الدلالات التي يمكن أن تستنبط من هذه الأمثلة لا تتعلق بقضية تقديم الفعل، سواءٌ في ذلك أكان ماضياً أم مضارعاً، لأنَّ هذا هو مكانه في أصل التركيب، وإنما تتعلقُ بمعنى الاستفهام الذي خرج في كل الأبيات السابقة عن معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى تفهم من السياق، كالإنكار والتقرير والتسوية، وإن كان هنالك شيءٌ يتعلق بالتقديم في الاستفهام فإنَّه يتعلق بدلالاتٍ أخرى كالاختصاص والتشويق إلى كلامٍ متأخر وتقوية المعنى على سبيل المثال[82].

ويذكر في هذا الصدد أنَّ تقديم المسند إليه على الفعل المضارع كان أمراً نادر الحدوث في ديواني الشاعرين، فلم يرد إلاَّ بيتٌ يتيمٌ ذكره أبو العتاهية في أبيات يخاطب فيها نفسه قائلاً:

يـا نفسُ أينَ أبـي وأينَ أبـو أبـي وأبــوه، عُــدِّي لا أبــا لــكِ واحســبي
عُـدِّي فـإنّي قـد نظـرتُ فلـم أجـد بينـــي وبـــين أبيـــكِ حيًّـــا مـــن أبِ
أفأنــتِ تــرجين الســلامة بعـدهم؟! مهــلا هُـديتِ لسـمتِ وجــهِ المَطلَـبِ[83]

ونرى هنا أنَّ تقديم المسند إليه دلَّ على التخصيص، إذ أفاد تقديم المسند إليه أنَّ الشاعر يقدم الموعظة لنفسه دون غيرها؛ لأنَّ عموم المجتمع الذي يعيش فيه أبو العتاهية غارقٌ في متع الدنيا وملذاتها الزائلة، وكأنَّ لسان حالهم يقول إنَّهم لن يموتوا، فأفاد الاستفهام هنا معنى الإنكار وزجر النفس على طلب دوام السلامة.

وكما نرى هنا فإنَّ للتقديم دلالة هي غير دلالة الاستفهام، إلاَّ أنَّ اجتماعهما معاً نهض بالمعنى، خصوصاً أنَّ هذه الأبيات قد تشبعت بالأسلوب الإنشائي الذي ترك أثراً بارزاً من خلال أسلوب النداء **(يا نفسُ)**، والاستفهام الذي خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى الاعتبار **(أين أبي)**، ثم فعل الأمر **(عُدِّي)** والانتهاء بالدُّعاء **(هُديتِ)** بأسلوبٍ خبريٍّ لفظاً وإنشائيٍّ مضموناً، فبرزت في هذا المعرض هواجس وشت بها هذه الأساليب الإنشائية.

وإذا دققنا في ديواني الشاعرين فسنجد أنَّ بشار بن برد قد أورد المسند إليه متلواً بالفعل الماضي – وهذا ما لم يقدمه أبو العتاهية في ديوانه – في قصيدةٍ في النَّسيب بسُعدى، ووصفِه زيارتَه إيَّاها ومجلسَ لهوهما في قصيدة قال فيها:

جورٌ أتى بك أم قصدٌ؟ فقلتُ لها مازلتُ أقصدُ لو تُدنين من قصدَا[84]

والمقصود بالجورِ هنا الخطأ، وهو ضدُّ القصدِ، ومعنى البيت هو: أكان وصولك مقصوداً أم مصادفةً؟ وإنَّما سألتْه لأنَّ مثل هذا المجيء لا يتعمده النَّاسُ إلا قليلاً لخطورته[85].

ويلاحظ هنا أنَّ همزة الاستفهام هنا محذوفةٌ، وأنَّ فاعلية السؤال كانت متوجهةً إلى الاسم المتقدم أولاً، ثم إلى الفعل المتأخر ثانياً، وقد أفاد تقديم المسند إليه هنا القصر، وتحديداً قصر التعيين الذي يُطلَبُ به تحديد أحد الأمرين واختياره، وقد حاول الشاعر هنا حشد التساؤلات من خلال إضافة أم المعادلة على صيغة الاستفهام التي حُذفت أداتها،

ويشار في هذا الصدد إلى أنَّ إضافة (أم) المعادلة إلى أسلوب الاستفهام ظاهرةٌ تحسب لبشار بن برد، وتشكل ظاهرةً فنيَّةً لديه في العديد من لوحاته الشعريَّة[86].

ج- تقديم المسند إليه بعد النفي: أغلب التراكيب التي يقع فيها التقديم والتأخير تكون مثبتةً، ولكنَّ عبد القاهر الجرجاني قلَّب فيها أساليب النفي كما قلبها مع الاستفهام من قبلُ؛ ليقف من وراء ذلك على معانٍ فنيَّةٍ دقيقةٍ تفهم من خلال التراكيب، فإن تلا الفعلُ النفيَ أفاد دلالةً، وإن تلا الاسمُ النفيَ أفاد دلالةً أخرى، إذ قال: "**إذا قلت: (ما فعلتُ)، كنت نفيتَ عنكَ فعلاً لم يثبُت أنَّه مفعولٌ، وإذا قلتَ: (ما أنا فعلتُ)، كنت نفيت عنك فعلاً يثبت أنَّه مفعولٌ**"[87]، ويفهم من قول الجرجاني أنَّ النفي إن تقدَّم على المسند إليه فإنَّه يفيد الاختصاص قطعاً، فهو يفيد تخصيص المسند إليه بنفي الخبر الفعلي ويثبته لغيره في الوقت نفسه، فالفعل ثابتٌ قطعاً، ومع ندرة هذا التركيب في ديواني الشاعرين إلاَّ أن تقديم المسند إليه (الفاعل في المعنى) ورد عند بشار في النسيب بعبدة:

ألا قـــل لعبـــدةَ إن جئتهـــا وقـــد يُبلِـــغُ الأقـــربُ الباعِـــدا
أجِـــدَّكِ لا أنـــتِ تُـــدنيني ولا الصَّـــيدُ مُتَّبِـــعٌ صـــائدا[88]

وورد عند أبي العتاهية تركيبٌ مماثل في بيتٍ يتيمٍ يقول فيه:

رويدك يا إنسانُ لا أنت تقفزُ[89]

ويُلاحظ هنا أنَّ كلا الشاهدين لا يفيد التَّخصيص، فبيت بشار يقتضي أن يقول **(لا أنت تدنيني ولا غيرك)** بدلالة ما بعده عليه من أنَّ الصيد لا يتبع الصيَّاد على الإطلاق، وبيت أبي العتاهية يتحتم فيه معنى النفي العامِّ الشَّامِلِ **(لا أنت تقفز ولا غيرك)**، ولذلك فإنَّ تقديم المسند إليه هنا لم يفد أنَّ عدم الدُّنو مقصورٌ على محبوبة بشار **(عبدة)** دون غيرها، ولم يفد أنَّ عدم القفز عند أبي العتاهية مقصورٌ على إنسانٍ دون غيره من البشر، فلا وجه هنا للاختصاص[90].

خاتمة البحث ونتائجه:

حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على ظاهرة تقديم الإسناد وتأخيره، من خلال عقد مقارنةٍ أسلوبيةٍ بين الشاعرين بشار بن بردٍ وأبي العتاهية، فنتج عن ذلك بعض المخرجات التي يمكن إجمالها فيما يلي :

– يعكس موضوع الرتبة وما يعتريه من جوازٍ ووجوبٍ مرونةً في اللغة العربية لا يتوفر لغيرها من اللغات الأخرى.

– هنالك صلةٌ واضحةٌ بين ظاهرة الرتبة والمعنى، فهي تؤدي وظيفةً بدت معالمها ظاهرةً في هذا البحث.

– اختلف تعاطي النَّحْويين مع ظاهرة الرتبة عن تعاطي البلاغيين لها، إذ أثار التلاعب بالرتبة المحفوظة إعجاب البلاغيين، لأنَّه بمنزلة التمرد على المألوف، بخلاف النُّحاة الذين كانوا حريصين على الإشارة إلى أصالة الترتيب في التركيب اللغوي.

– بيَّنَ هذا البحث أنَّ التلاعُب في الرتبة كان حاضراً بقوة لدى الشَّاعرين موضوع الدرس، إلاَّ أنَّ قوَّة الطبع وجودة السبك وبراعة الوصول إلى المعنى كانت الكفة مائلةً فيها لجهة بشار بن برد، وربما كان ذلك سبباً من الأسباب التي دعت بعض النُّحاة إلى الاحتجاج ببعض شعره بالرغم من أنَّه تجاوز المعيار الزَّماني والمكاني لعصر الاحتجاج .

الهوامش والملاحظات:

1 – ابن منظور: لسان العرب، مادة (ق د م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م 1419هـ.

2– محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمَّان، ط1، 1985م، ص183.

3– المرجع السابق ص9.

4 – لسان العرب، مادة (ر ت ب).

5 – معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص92.

6 – لطيفة النجار، دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة النحوية، دار البشير، ط1، 1994م، ص196.

7- ابن عقيل (عبد الله بن عبد الرحمن القرشي ت769هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ،دار التراث، القاهرة، ط20، 1980م، 227/1.

8- سيبويه (عمرو بن عثمان ت180هـ): الكتاب، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1996م، 126/2.

9- بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط2003،1م، 164/1.

10- شروح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت، 287/1.

11- ابن يعيش (أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش ت643هـ)، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، 98/1.

12- ينظر : شرح المفصل 99/1.

13- ابن جني (أبو الفتح عثمان ت392هـ)، اللمع في العربية، تح سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي، عمان، 1988م، ص32.

14- ينظر: الزمخشري (محمود بن عمر ت538هـ)، المفصل، تح فخر قدارة، دار عمار، عمان، ط1، 2004م، ص50.

15- ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري ت761هـ)، شرح قطر الندى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط11، 1963م، ص124.

16- أميرة توفيق، الجملة الاسمية عند ابن هشام الأنصاري، مطبعة البرلمان، القاهرة، 1971م، ص52.

17- ينظر: فندريس، اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1950م، ص187.

18- ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام، المكتبة العصرية، 203/1 وما بعدها.

19 - ديوان بشار بن برد، تح الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر،2007م، 126/1-127.

20 - ينظر: الجنى الداني ص96، والمفصل في صنعة الإعراب للزمخشري، ص382.

21- ديوان أبي العتاهية، تح شكري فيصل، مكتبة دار الملاح، دمشق، ص1-2.

22 - لسان العرب، مادة (كلل).

23 - ديوان بشار بن برد 138/1.

24 - ديوانه 147/3.

25- ديوان أبي العتاهية ص95.

26 - ديوانه ص95.

27- ديوان بشار بن برد 149/3.

28- ديوان أبي العتاهية ص130.

29- المرادي (الحسن بن قاسم ت749هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني، تح فخر الدين قباوة ومحمد فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م، ص252-253.

30- الجرجاني (عبد القاهر ت471هـ)، العوامل المئة، دار المنهاج، بيروت، ط1، 2009م، ص44.

31- ديوان بشار بن برد 223/3.

32- ديوان أبي العتاهية ص279.
33- الآية 30 من سورة القيامة.
34- محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط4، 1996م، ص314.
35- الجنى الداني، ص476-477.
36- ديوان بشار بن برد 53/3.
37- ديوان أبي العتاهية ص351-352.
38- ديوان بشار بن برد 70/2. وقد ورد الشطر الأول في الأغاني 174/3 هكذا: فإن جئتها بين النساءِ فقل لها.. الخ.
39- سنن أبي داود (5209) والترمذي (2722).
40- ديوان بشار بن برد 185/4.
41- ديوانه 178/4.
42- ديوان أبي العتاهية ص341.
43- ديوانه ص208.
44- ديوانه ص343.
45- ديوان بشار بن برد 180/4.
46- ديوانه، الهامش 180/4.
47- ديوان أبي العتاهية ص189.
48- ينظر تفسير قوله تعالى { سلامٌ على نوحٍ في العالمين } في تفسير التحرير والتنوير 133/23-134.
49- ديوانه ص37.
50- ينظر : المقتضب للمبرد (محمد بن يزيد)، تح محمد عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط3، 1994م 109/4.
51- شرح المفصل 103/1.
52 - ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994م، ص123.
53- مغني اللبيب، ص433. مع أنَّ ابن هشامٍ عدَّ هذه الجملة فعليَّةً حين ذكر أنَّ الجملة الفعليَّة "هي التي صدرُها فعلٌ، كقام زيدٌ، وضُرِبَ اللصُّ، وكان زيدٌ قائماً، وظننته قائماً، ويقوم زيدٌ، وقم"، إلاَّ أنَّه نبَّه إلى أهميَّة الإسناد في تصنيف الجملة، فالعبرة فيما يتقدَّم من ركني الإسناد، إذ ذكر أنَّ مراده "بصدر الجملة المسندُ والمسند إليه، فلا عبرة بما تقدَّم عليهما من الحروف" .
54- ينظر: الكتاب 131/2-142.
55 - ديوان بشار بن برد 138/1.
56- الكتاب 34/1.
57 - ديوان أبي العتاهية ص64.
58 - ديوانه ص197.

59 – ينظر: علي أبو المكارم، الجملة الاسمية، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2007م، ص75.

60– ديوان بشار بن برد 206/1.

61– ينظر: محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1987م، ص172.

62– محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، لونجمان، الجيزة، ط2، 2007م، ص240. وينظر: شرح قطر الندى: ابن هشام، ص124.

63 – ديوان أبي العتاهية ص92 و ص513.

64 – ديوانه ص442 و ص679.

65– يشار في هذا المقام إلى وجود علاقةٌ خاصَّةٌ تجمع بين الظروف والجارِّ والمجرور، تتعلق بوجود بعض الخصائص اللفظيَّة والوظيفة المشتركة، وقد اشتهرت عند متقدمي النحاة العبارة القائلة: إنَّه يُتوسع في الظرف والجار والمجرور ما لا يتوسع في غيرهما فيها، ويقع كلا التركيبين في مواقع لغويَّةً خاصَّةً لا يجوز وقوع غيرهما من التراكيب فيها، ولذلك جرى تخصيص مواضع للحديث عن شبه الجملة، تناولت الأحكام المشتركة بين الظرف والجار والمجرور. ينظر: التراكيب الإسنادية: علي أبو المكارم، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2007م، ص18.

66– ديوان بشار بن برد 362/1.

67– ديوان أبي العتاهية، ص73.

68– ديوان بشار بن برد 181/2.

69– اللغة لفندريس، ص187.

70– الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م، ص128.

71– خصائص التراكيب، ص227.

72– ديوان بشار بن برد، 389/1، وهذه القصيدة شهيرةٌ مطلعها: هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميعَ العربِ.

73– ديوانه 390/1.

74– ديوان أبي العتاهية، ص366.

75– لاشين عبد الفتاح، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض، ص151–152.

76– ديوان بشار بن برد 118/117/4.

77– ديوان أبي العتاهية، ص434.

78– البلاغة العربية قراءة أخرى، ص287–288.

79– ينظر: دلائل الإعجاز، ص111– 123. وينظر: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، ص143–148.

80 – ينظر: دلالات التراكيب، محمد أبو موسى، ص217.

81 – المزاوجة بين الخبر والإنشاء في النظم القرآني، رسالة ماجستير لأحمد محمد عبد الله بن سلمان، جامعة أم درمان الإسلامية، 2006م، ص44–45.

82- ينظر في أغراض تقديم المسند والمسند إليه على سبيل المثال في كتاب: البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، فضل حسن عباس، دار الفرقان، إربد، ط4، 1997م، ص212.

83- ديوان أبي العتاهية، ص32.

84- ديوانه، ص142.

85- هامش ديوانه، ص142.

86- يادكار لطيف الشهرزوري، المفاتيح الشعرية قراءة أسلوبية في شعر بشار بن برد، دار الزمان، دمشق، ط1، 2012م، ص173.

87- دلائل الإعجاز ص124.

88- ديوان بشار بن برد 2/3 و 147/3.

89- ديوان أبي العتاهية، ص562.

90- ينظر: دراسة في البلاغة والشعر، ص179. وينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، ص333.

المصادر والمراجع :

1- ابن جني (أبو الفتح عثمان ت392هـ): اللمع في العربية، تح سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي، عمان، 1988م.

2- ابن عقيل (عبد الله بن عبد الرحمن ت769هـ): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ،دار التراث، القاهرة، ط20، 1980م.

3- ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م 1419هـ.

4- ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري ت761هـ): أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية، بيروت.

5- ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري ت761هـ): شرح قطر الندى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط11، 1963م.

6- ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري ت761هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1991م، 1411هـ .

7- ابن يعيش (أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش ت643هـ): شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.

8- أميرة توفيق: الجملة الاسمية عند ابن هشام الأنصاري، مطبعة البرلمان، القاهرة، 1971م.

9- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994م.

10- الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن ت471): العوامل المئة، دار المنهاج، بيروت، ط1، 2009م، 1430هـ.

11- الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن ت471): دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م.

12- ديوان أبي العتاهية، تح شكري فيصل، مكتبة دار الملاح، دمشق.

13- ديوان بشار بن برد، تح الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر،2007م.

14- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ت538هـ): المفصل في صنعة الإعراب، دار الهلال، بيروت، ط1، 1993م.

15- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ت538هـ): المفصل، تح فخر قدارة، دار عمار، عمان، ط1، 2004م.

16- السبكي (بهاء الدين تـ773هـ): عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003م.
17- سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر تـ180هـ): الكتاب، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1996م.
18- شروح تلخيص المفتاح: دار الكتب العلمية، بيروت.
19- عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض.
20- علي أبو المكارم: التراكيب الإسنادية، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2007م.
21- علي أبو المكارم: الجملة الاسمية، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2007م.
22- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، دار الفرقان، إربد، ط4، 1997م.
23- فندريس: اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1950م.
24- لطيفة النجار: دور البنية الصرفية في وصف الظاهرة النحوية، دار البشير، ط1، 1994م.
25- المبرد (محمد بن يزيد تـ285هـ): المقتضب، تح محمد عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط3، 1994م.
26- محمد سمير نجيب اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمَّان، ط1.
27- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، لونجمان، الجيزة، ط2، 2007م.
28- محمد محمد أبو موسى: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1988م.
29- محمد محمد أبو موسى: خصائص التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط4، 1996م.
30- محمد محمد أبو موسى: دراسة في البلاغة والشعر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1991م، 1411هـ.
31- محمد محمد أبو موسى: دلالات التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1987م.
32- المرادي (الحسن بن قاسم تـ749هـ): الجنى الداني في حروف المعاني، تح فخر الدين قباوة ومحمد فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م.
33- يادكار لطيف الشهرزوري، المفاتيح الشعرية قراءة أسلوبية في شعر بشار بن برد، دار الزمان، دمشق، ط1، 2012م.

الرسائل الجامعية:

1- المزاوجة بين الخبر والإنشاء في النظم القرآني، رسالة ماجستير لأحمد محمد عبد الله بن سلمان، جامعة أم درمان الإسلامية، 2006م.